الباب الأول

من هى الأمة الجاهلية

العرب جيل من الناس كانوا يسكنون أطراف الجنوب الغربى من آسيا قبل الإسلام، ثم انتشروا فى مصر وشمال أفريقيا وغيرها بعد الإسلام ، وكانوا قسمين (عرب البدو – وعرب الحضر) .

والبدو سكان البادية ويسمون الأعراب .

ويغلب على طباعهم الحمق والجهل وجفاء القول، وهذا الذى يسمى بالعنجهية، لذلك وصفهم القرآن بقوله فى سورة التوبة ﴿ **الأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلاَّ يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ** ﴾ [التوبة : ٩٧] .

والبداوة هى الغالبة على العرب القدماء ، ومن غلبة البداوة عليهم قَلَّت فيهم الصناعة حتى كانوا يعتمدون فيها على الفرس والروم وغيرهما من الأمم المجاورة لهم ، على أن هذه العنجهية

ليست خاصة بسكان البادية من العرب بل هى شاملة لسكان البادية من كل أمة .

وفى الحديث عن النبى ﷺ « من بدا جفا » وكلمة من : تعد من ألفاظ العموم عند الأصوليين .

والحضر : سكان المدن وتغلب عليهم رقة الحضرية التى تقابل جفاء البدوية وهم مع تلك الحضارة تغلب عليهم الأمية التى وصفهم القرآن بها فى قوله : ﴿ **هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ** ﴾ [الجمعة : ٢] .

وقال النبى ﷺ : « إنا أمة أمية لا نكتب ولا نحسب »، تتمة حديث الصيام فى الصحيحين .

ومن غلبة الأمية عليهم قلت فيهم العلوم ولهذا أطلق عليهم أمة جاهلية فيما أرى أنا . وليست الجاهلية خاصة بالعرب القدامى ، وإنما هى عامة لكل أمة غير كتابية، أو غلبت عليهم الأمية وقلت فيهم العلوم ، لأن الأمية مظنة الجهل كما أن الكتابة والقراءة مظنة العلم .

وإن كان لا يزال بين الأميين علماء وبين القارئين الكاتبين

جهلاء كما أوضحه الدكتور نظمى لوقا فى كتابه «وامحمداه» فليس هذا فى حكم الأغلبية .

وكان أهل أوربا يطلقون على ما يقابل عصر الجاهلية عندنا كلمة (العصور المظلمة) عندهم مقابلة المثل بالمثل فى الأحوال والأوضاع ، وكان إطلاق الجاهلية على العرب بعد ظهور الإسلام كما كان إطلاق العصور المظلمة على أوربا بعد ظهور العلم عندهم .

كان العرب قبل الإسلام يستعملون كلمة الجهل فى حدود معناه العادى الذى هو عندهم الحمق والجفاء والتسرع فى القول والفعل ونحو ذلك .

وعليه قول عمرو بن كلثوم :

ألا لا يجهلن أحد علينا فنجهل فوق جهل الجاهلينا

ويقرر الدكتور أحمد أمين أن الجاهلية عند العرب ليست من الجهل الذى هو ضد العلم ، ولكن من السفه والغضب والأنفة، لهذا كانت الكلمة تدل على الخفة والأنفة والحمية والمفاخرة ، ولهذا يقابلها هدوء النفس والتواضع والاعتداد بالعمل الصالح لا بالنسب[١] .

---

(١) فجر الإسلام ص ٧٠ .

لم تكن صفة الجاهلية اصطلاحاً إسلاميًّا تنبع معانيه من المنابع الإسلامية. ولم يجعل الإسلام فرقًا بين إطلاقها على من لا يقرأ ولا يكتب أو على من يقرأ ويكتب إذا كان لا يجرى على موجب علمه كما أطلقها على السحرة فى قوله:

﴿ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة : ١٠٢] .

ولما نفى العلم عنهم أثبت لهم الجهل .

وأنا أرى أن الجاهلية : مصدر صناعى يقابله وزناً ومعنى مقابلة الضد بالضد فى الوضع اللغوى ، لفظ (العالمية) وإن لم تستعمل حيث لم تكن العلوم منتشرة بين الناس فى دنيا العرب ودنيا الناس قبل الإسلام ، وكانت القراءة والكتابة غاية العلوم ظل إطلاق لفظ الأمى على من لا يقرأ ولا يكتب تمييزاً بينه وبين من يكتب ويقرأ، ولم تنتشر العلوم حتى يكثر فيهم العلماء فينشر استعمال كلمة عالم .

وكان اليهود يطلقون صفة الأمية أو الأممية على غير بنى إسرائيل، ولو كان يكتب ويقرأ وذلك بقولهم كما حكى القرآن عنهم : ﴿ لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ ﴾ [آل عمران : ٧٥] .

ويقول بعض العلماء : ليست غلبة الأمية على العرب

السبب الوحيد الذى من أجله أطلق لفظ الجاهلية عليهم ، إذ فيهم حين ذلك من يكتب ويقرأ ويتعاطى مع ذلك أحوال الجاهلية المنكرة .

وفى تفسير ابن كثير نقلاً عن ابن عباس قال : « إذا أردت أن تعلم جهل العرب فاقرأ فى سورة الأنعام قوله تعالى :

﴿ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴾ [الأنعام : ١٤٠] وما بعدها » .

ويقول الأستاذ السورى محمد المبارك فى كتابه « الأمة العربية » ، إن الجاهلية عبارة عن وضع قيم الأشياء فى غير مواضعها ، وأن الله وصف أهل الجاهلية بأوصاف ثلاثة وهى : الضلالة – والغفلة – والإسراف .

أما الضلالة ففى قوله : ﴿ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ ﴾ [البقرة : ١٩٨]

وأما الغفلة ففى قوله : ﴿ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ ﴾ [يس : ٦] .

وأما الإسراف ففى قوله : ﴿ أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ الذِّكْرَ صَفْحًا أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ ﴾ [الزخرف : ٥] فبذلك تنطوى هذه المعانى تحت كلمة الجاهلية .

التقـاليد

تختلف الأمزجة الخلقية عند الناس تبعاً لاختلاف الأجواء والبيئات التى يعيشون فيها ، فينشأ من ذلك اختلاف التقاليد والعادات فتكون طرائق قددًا .

وشر ما فى الإنسان من آفة أن يعض بالنواجذ على ما يرث من الأجداد والأسلاف من العادات والتقاليد دون ما غربلة .

وليس جميع ما يورث من العادات والتقاليد يكون خيراً أو شراً؟

العادات : تطلق على الملكات العارضة، كالمشى والقعود والكلام والسكوت، وكيفية الطعام والشراب واللباس والسكن .

والأخلاق : تطلق على الملكات الراسخة فى الإنسان فضائلها ورذائلها، كالشجاعة والجبن والسخاء والبخل والحياء والوقاحة والصدق والكذب .

والتقاليد : تطلق على العقائد والعادات الموروثة من الأسلاف ، وهى تستعمل غالباً بصيغة الجمع .

أما مفردها الذى هو التقليد : فهو غريزة أودعها الله فى الإنسان وبها يحاكى غيره أو يتشبه بمن يريد .

والعقائد إن لم تكن مستوحاة من الله ورسله كانت أقرب إلى الخرافة منها إلى الحقيقة .

والخرافات : هى الاعتقادات الباطلة والأوهام الزائلة التى لا أساس لها من الصحة ومنشؤها الجهل والخوف، أو الغش والتمويه .

وإنما أخذ لفظ الخرافة من اسم رجل زعموا فى الجاهلية أن الجن اختطفه مدة ثم رجع إلى قومه وصار يخبرهم بما رأى وما وقع له من الجن فكذبوه وصاروا يقولون لما لا يمكن وقوعه (حديث خرافة) .

البدعة : هى العادة الدخيلة على العادة والعبادة الأصلية .

والبدعة العادية : ما يتجدد من الأحوال ويتغير من الأوضاع فى العادات والتقاليد .

والبدعة الدينية : زيادة أو نقصان أو تحريف أو تغيير عن الأصل المشروع .

والإسلام لم يترك خرافة من الخرافات إلا تعرض لها وفندها، ولم يترك حقيقة من الحقائق الغيبية إلا أثبتها ووطدها .

أما العادات والتقاليد الموروثة عن الأجداد والأسلاف فالإسلام لا يبطل جميعها ولا يقبل جميعها .

ولكنه يجعل الحظر فى التقاليد موقوفاً على مفسدتها لعقيدة الفرد وأخلاقه ومعاملته مع الجماعة ، كما يجعل الإباحة فيها موقوفة على مصلحتها للفرد وللإنسانية جمعاء طبقاً للقاعدة الأصولية المعروفة عند فقهاء الإسلام .

وكذلك ينظر الإسلام إلى البدع ، فإنه يقبل منها ما كان من العادات ويرضاها، لأنه لا يأمر بالجمود على عادة أو حالة، ولكنه لا يرضى بالبدع فى العبادات ما لم يأذن بها الله .

أما الخرافات : فبعضها تلتبس بالغيبيات ، أنزل الإسلام الوحى لتحقيق ما كان حقًّا منها ، وإبطال ما كان باطلاً .

ولكل أمة عادات وتقاليد منها ما يستحسن ومنها

ما يستقبح، وتزدهر تلك التقاليد بازدهار تلك الأمة كما تتدهور بتدهورها، وكثيراً ما تمتزج تقاليد الأمم بجاهليتها الأولى.

وكان يتسرب إلى كل ملة وديانة بدع وزيادات ، ومن الملل والديانات ما يقبل كل عادة وكل بدعة ولا يردها كالنصرانية واليهودية .

أما الإسلام، فإنما ينظر إلى التقاليد الموروثة كالناقد البصير، ليغربلها حتى يذهب الزبد جفاء ويبقى للناس ما ينفعهم ، مما يتجدد صلاحه مع تجدد الزمن فيقبله ويرضاه وينظر إلى بدع العبادات فيرفضها ويأباها..

وقد قسم بعض المؤلفين البدعة الدينية إلى نوعين[١] :

الأول: بدعة حسنة، وهى ما يلحق بالمصالح المرسلة[٢]،

---

(١) ويرى العالم المحقق الشيخ محمد المبارك – ونحن معه – أن البدعة ما يستحدث بعد أن لم يكن . وهى فى (العقيدة) و(العبادة) ممنوعة وقبيحة، وفى الأمور الدنيوية كالأدوات والآلات والملابس حسنة إن لم يكن فيها حرمة .
وقد تكون فى المعاملات فيما أجازه الشارع كالشركات المستحدثة غير المشتملة على حرام.

(٢) المصلحة المرسلة. هى ما لا يشهد له نص معين من الشارع بالفعل أو الترك ، ولكنه وجد من أصل الحكم نفسه ما يدل على جواز العمل به، أو وجد من القواعد الشرعية العامة ما يدل على =

ويستدل عليها بقاعدة شرعية لحديث «من سن فى الإسلام سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها» رواه مسلم فى صحيحه .

والثانى : بدعة قبيحة وهى ما يخالف قواعد الدين الأساسية ، أو ما ينحرف بالدين عن جادته المشروعة .

وقيل البدعة ما يكون فى المقاصد والمصلحة المرسلة تكون فى الوسائل، وبين علماء الإسلام حرب الأقلام فى تحسين بعض البدع وعدم تحسينه ، فلسنا الآن بصدد ذلك . فعلى الباحث الرجوع إلى مظانه إن شاء . مثل كتاب الاعتصام للشاطبى . وليس من الإسلام للغزالى، والمدخل لابن الحاج والإبداع فى مضار الابتداع لعلى محفوظ والسنن والمبتدعات لمحمد بن عبد السلام وغيرها .

= جواز العمل به ، مثال ذلك جمع القرآن فى مصحف لم يأمر به النبى ﷺ ولم ينه عنه ، ولكنه أمر بكتابة القرآن ، ثم وجدت نصوص من القرآن تدل على ذلك منها أنه كتاب مكنون لا يمسه إلا المطهرون، وغير ذلك من الآيات والأحاديث .
وكذلك صلاة التراويح جماعة ، فقد صلاها النبى مرتين فى جماعة ثم ترك ذلك خشية أن يتخذها النامس فريضة.
وفى عهد سيدنا عمر رضى الله عنه : أذن للناس أن يصلوها جماعة لأن النبى صلاها جماعة ثم وجد من القواعد العامة فضل صلاة الجماعة فرضاً ونفلاً هكذا .

الإسلام بين التميع والتزمت فى العادات

لقد أثبت علماء الأخلاق أن كل عمل يتكرر من الإنسان سواء أكان خيراً أم شرا يصبح عادة «والعادة توأم الطبيعة».

قال الشاعر الحكيم :

لكل امرئ فى الخير والشر عادة وكل امرئ جار على ما تعودا

ومعنى ذلك أن : من شب على شيء شاب عليه ، ومن شاب على شيء مات عليه.

وكل من تعود شيئاً حتى بلغ من العمر خمسين عاماً تجمد عليه وتحجر، ولا يستطيع غيره ، لهذا قال شاعرهم :

إذا جاوز الخمسين سنك لم يكن لدائك إلا أن تموت طبيب

وقال الآخر :

الشيخ لا يترك أخلاقه حتى يوارى فى ثرى رمسه

وقال ابن دريد :

يقوم الشارخ من زيغانه فيستوى ما انعاج منه وانحنى

والشيخ إن قومته من زيغه لم يقم التثقيف منه ما التوى

كذلك الغصن يصير عطفه لدنا شديد غمزه إذا عسا

وكل ذلك شرح لمعنى الأثر القائل «التعليم فى الصغر كالنقش على الحجر، والتعليم فى الكبر كالرسم على البحر».

ولذلك يهتم الأذكياء من الدعاة فى جميع الأديان بالشباب دون الكهول والشيوخ، لأن غريزة التقليد لا تزال قوية فى طباع الشباب.

والشباب إذا لم يجد أمامه غير آبائه جعلهم مثله الأعلى وقلدهم.

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلا يَهْتَدُونَ ﴾

[البقرة : ١٧٠]

وإذا وجد الشباب قوماً غلبوا على آبائه ترك عادة آبائه وقلد الغالبين. ولهذا قرر ابن خلدون : «أن المغلوب دائماً مولع بتقليد الغالب ، وأن الأبناء والتلاميذ والرعية يتشبهون بآبائهم وملوكهم لأنهم كانوا يعتقدون فيهم الكمال».

والتزمت على الموروث من الأسلاف وعلى ما أكل عليه

الدهر وشرب هو الجمود. وللجمود مزاياه إذا كان على ما أنزل الله من عقيدة وبرهان ، لهذا قال الأستاذ عباس محمود العقاد :

« ولولا بقية من جمود الإنسان على ما يرث من آبائه لما بقى على ظهر البسيطة دين ولو مبدلاً قبل نزول المجدد، أو كما قال .

وللجمود خزاياه إذا كان على غير ما أنزل الله من العلم والإيمان ، لذلك جعل الله المعيار العادل فى التقليد والجمود هو الوحى والعقل اللذان يبطلان خرافات الاعتقادات وأوهام الوساوس.

كان العرب على العادات والتقاليد الموروث بعضها من آثار الحنيفية ، فجاء الإسلام بإثباتها وتقريرها وإبقائها ، والموروث بعضها الآخر من رواسب الوثنية . فجاء الإسلام بمحاربتها وإلغائها وسماها جاهلية .

وأمر المسلمين برفضها رفضاً تامًّا وقال : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ** ﴾ [البقرة : ٢٠٨] .

وقد ربط النبى ﷺ كمال إيمان المؤمن بموافقة ما جاء به ، ومخالفة تقاليد الجاهلية فقال : « لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به » متفق عليه .

وقال : « ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان : أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود فى الكفر بعد إذ أنقذه الله منه ، كما يكره أن يقذف فى النار » رواه البخارى .

وقال ﷺ : « إن أبغض الناس إلى الله ثلاثة : ملحد فى الحرم، ومبتغ فى الإسلام سنة الجاهلية ، ومطلب دم امرئ بغير حق ليهريق دمه » رواه البخارى .

وقال ﷺ لرجل قال : يا رسول الله أنؤاخذ بما عملنا فى الجاهلية قال « من أحسن فى الإسلام لم يؤاخذ بما عمل فى الجاهلية، ومن أساء فى الإسلام يؤاخذ بالأول والآخر » .

وأوضح النبى ﷺ أن عمل الخير فى الجاهلية فقط لا يجدى عامله نفعاً، ما لم يدخل العامل فى الإسلام ، وإن دخل فالإسلام يجب ما قبله .

وقد جاء عن عائشة رضى الله عنها قالت: قلت يا رسول الله، إن ابن جدعان كان فى الجاهلية يصل الرحم ويطعم المسكين، فهل ذلك نافعه، قال ﷺ: «لا ينفعه، إنه لم يقل رب اغفر لى خطيئتى يوم الدين» رواه أبو داود.

* * *

من معانى الجاهلية

الجاهلية : وضع جامع لسائر الأحوال الرذيلة التى كان عليها العرب والعجم وسائر الأمم قبل الإسلام .

وهو اصطلاح إسلامى استعمله الإسلام لما قبل الإسلام وما بعده ، من آثارتلك الأحوال، لقول النبى ﷺ لأبى ذر الصحابى الجليل « إنك امرؤ فيك جاهلية » .

وتطلق الكلمة من جهة أخرى على العصر الذى قبل الإسلام بمئتى عام ، ومن ذلك أخذوا كلمة الأدب الجاهلى ، والشعر الجاهلى ، والعصر الجاهلى ، وقد استعمل النبى كلمة الجاهلية لهذا المعنى بقوله : « الناس معادن، خيارهم فى الجاهلية خيارهم فى الإسلام » .

وعلى هذا وذاك يكون معنى الجاهلية الاصطلاحى :

فترة من الزمن عاش فيها العرب وغيرهم من الأمم على الكفر والوثنية والمفاسد الخلقية ودعاوى العصبية والربا بسائر أنواعها .

لهذا جاء فى خطبة النبى ﷺ فى حجة الوداع : «ألا كل شىء من أمر الجاهلية تحت قدمى موضوع» إلى أن قال «إن دماء الجاهلية موضوعة. وربا الجاهلية موضوع».

وتطلق الجاهلية فى الإسلام على التخلق بشىء من تلك الأخلاق الرذيلة .

وقد كتب الكاتب الإسلامى القدير محمد قطب كتاباً ضخماً سماه (جاهلية القرن العشرين) وعرف الجاهلية تعريفاً ينطبق على ما قبل الإسلام وبعده .

قال محمد قطب فى هذا الكتاب :

الجاهلية كلمة تطلق على حالة نفسية ترفض الاهتداء بهدى الله، ووضع تنظيمى يرفض الحكم بما أنزل الله.

وكذلك يقول أخوه الشهيد السيد قطب رحمه الله، كما قرأت فى كثير من كتاباته:

لقد استمدوا هذا التعريف من واقع القرن العشرين المنبثق من فساد التصور فى العلم والمعرفة والتقدم والحضارة ، وما تمخض عن ذلك كله من فساد السلوك الشائع فى الجاهلية الأولى، والذى جاء الإسلام بإصلاحه .

ثم استعرض محمد قطب فى ذلك الكتاب المعسكرات الفكرية والسياسية والاقتصادية، ووقوفها أمام الإسلام الذى جاء لإنقاذ البشرية من تلك الظلمات إلى النور ومن ذلك الضلال إلى الهدى . ومن هذه الجاهلية كلها إلى الإسلام .

فالأستاذ محمد قطب قد بحث فى الأفق الأعلى من ناحية الغاية ، وأنا أبحث فى الأفق الأدنى من ناحية المبدأ .

على أنى قصدت إصلاح الأوضاع السيئة فى بلادى أولاً . وإن كان البحث لا يخلو من فائدة لكل مسلم فى كل بلد ، فالدعاة لهم نزعات مختلفة ومقاصد متباينة وكل يدعو إلى الله وإلى الإصلاح ، ولكل وجهة هو موليها ، فاستبقوا الخيرات .

* * *